بسم الله الرحمن الرحيم

٢١ ـ سورة الأنبياء

سميت بذلك لاشتمالها على فضائل جليلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهى مكية . واستثنى منها بعضهم آية[1] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) وهى مائة واثنتا عشرة آية . وروى البخارىّ عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادى .

قال ابن الأثير : أى من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالد : المال القديم الذى ولد عندك ، وهو نقيض الطارف .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ)

« ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخروىّ وهو عذابهم « وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذّبون به . وإنما كان مقتربا لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى(١) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا) وقال تعالى(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا يخفى ما فى عموم (الناس) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، ففى العنوان مايرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدنيوىّ والأخروىّ لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم، كما أشير إليه فى آية(٣) (فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ) ووعد به النبىّ وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخروىّ ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

---

(١) [٧٠ / المعارج / ٦و٧] .
(٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .
(٣) [٥ / المائدة / ٥٢] .

« مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقريع لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكمل تذكير ، وينبه على الغفلة أتم تنبيه ، أن تخشع له القلوب وتستخذى له الأنفس .

قال الزمخشرىّ : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون. فما يزيدهم استماع الآى والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التى هى أحق الحق وأجد الجد ، إلا لعبا وتلهيا واستسخاراً . و (الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع. وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية. فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف. فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً، أنه موجدلتلك الحروف والأصوات فى الجسم. كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبىّ عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدالّ والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلًّا للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوّ دال على الصفة القديمة النفسية ، التى هى الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلّغوها إلى أممهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التى هى تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرٌ ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته فى كتابه (مطابقة المنقول للمعقول) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم. والحدوث فى لغة العرب العام ليس هو الحدوث فى اصطلاح أهل الكلام. فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً، وما تقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن. كقوله تعالى[1] (كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى[2] عن إخوة يوسف (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى[3] (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) وقوله تعالى عن إبراهيم[4] (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) انتهى .

وقال العارف ابن عربىّ فى الباب التاسع والستين والثلاثمائة من (فتوحاته) فى هذه الآية: المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سمعوه . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتى . وكذلك القرآن جاء فى مواد حادثة تعلق السمع بها. فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات. فله الحدوث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذن الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسما (إِنَّهُ) يعنى القرآن[5] : (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فأضاف الكلام إلى الواسطة

---

(١) [٣٦ / يس / ٣٩] .
(٢) [١٢ / يوسف / ٩٥] .
(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .
(٤) [٢٦ / الشعراء / ٧٥و٧٦] .
(٥) [٦٩ / الحاقة / ٤٠] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله[١] : (فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السماعين بعد المشرقين . فإن الذى يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لايساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالمذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية فى (منهاج السنة) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعيّن قديماً .

وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذى دل عليه الشرع والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويجئ ـ فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى فى الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول[٢] (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ) وقال[٣] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال

ثم قال رحمه الله : قالوا ـ يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعىّ وأحمد وغيرهما ـ وبالجملة فكل مايحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شىء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لاتقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعَدَلْنا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

---

(١) [٩ / التوبة / ٦] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨] . (٣) [٣٦ / يس / ٨٢] .

أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . ولفظ (الحوادث) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزه عن ذلك . ولكن يقوم به ماشاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلما ودوام كونه فاعلًا بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاريّ وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهي وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات منقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذى قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزليًّا لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلما . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلًّا للحوادث التى كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول فى الثانى كالقول فى الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)

« لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على الذم « أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ » أى تنقادون له وتتبعونه . وقوله « وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشرىّ رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملكا ، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود : وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« قَالَ رَبِّى » حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم . وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه « يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ » أى لما أسروه « الْعَلِيمُ » أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم فى فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ)

« بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ » أى أخلاط يراها فى النوم « بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ » أى اختلقه « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيل للناس معانى لاحقيقة لها . وهكذا شأن المبطل المحجوج ، لايزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ » أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون. أى حتى نُؤْمِنَ له. ثم أشار تعالى إلى كذبهم فى دعوى الإيمان بمجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله سبحانه وتعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

« مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات. أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ماسألوا، وأعطوا ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقدمنا أن رقىّ النوع البشرىّ فى العهد النبوىّ ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية. فتذكر

ثم أوضح جواب شبهتهم فى منافاة البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء «فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ» أى العلماء بالتوراة والإنجيل «إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفى الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحجّ الخصم وإقناعه .

تنبيه :

قال الرازىّ : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعامىّ أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن المجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر ـ فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى .

ثم بيّن تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ)

« وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ » أى جسداً مستغنياً عن الطعام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قال تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ) وفى هذا التعريف الربانىّ عن حال المرسل ، أكبر رادع لأولئك المزوين عن الناس المتصيّدين به قلوب الرعاع والعامة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى المجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم. فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم، وهو السنة. ومن المشى بالأسواق، وهو المأذون فيه. ومن إجابة الدعوة، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها. ومحافظة على السمعة حموا جانبها.

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] .

فتبًّا لهم من قوم مبتدعين ، يعبـــدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا لله . فما أجرأهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار !

وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى[1] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل . تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنـه . وكونهم بشراً من تمام النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن المرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ)

« ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم[2] (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ) « فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه « وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن ، محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم وحديثكم الذى تذكرون به فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى[3] (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ » وقيل : معنى (ذِكْرُكُمْ) موعظتكم

(١) [٢١/ الأنبياء/٣٤] . (٢) [٥٨/ المجادلة/١٢] . (٣) [٤٣/ الزخرف/٤٤] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) إنكار توبيخىّ ، فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب ، والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له ، بقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)

[١٢] (فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ)

[١٣] (لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ)

«وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ* فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ » أى عذابنا النازل بهم « إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ » أى يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقال «لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» أى من التنعم والتلذذ و (فى) ظرفية أو سببية « وَمَسَٰكِنِكُمْ » أى التى كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ » أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

[١٥] (فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ)

[١٦] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ)

« قَالُوا » أى لما أيقنوا بنزول العذاب « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ » أى تلك الكلمة وهى (يا ويلنا) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق « حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا » أى كنبات محصود « خَامِدِينَ » أى هالكين بإخماد نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ » أى بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشرىّ عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للهو واللعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التى لاتعد والمرافق التى لا تحصى . وقال أبو السعود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة . وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرعاتها . عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه . وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم . أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع ، خالية عن الحكم والمصالح . وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل (لَاعِبِينَ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه . ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى[1] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقوله تعالى[2] (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧] . (٢) [٥١/الذاريات/ ٥٦].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ)

« لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ » استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أى لو أردنا أن نتخذ مايتلهى به ويلعب لاتخذناه من عندنا . كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزيينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة. فيستحيل اتخاذنا له قطعاً. وقوله تعالى « إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ » جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أى لاتخذناه . وقيل : إنَّ (إن) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لاتخاذ اللهو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

« بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ » إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب أو نريده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُۥ » أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالكلية . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل (القذف) الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولمحقه للباطل (الدمغ) الذى هو كسر الشىء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلا لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه ، برمى جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيح المجاز. لأن من رمى فدمغ تزهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفى الآية إيماء إلى علوّ الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثانى فانٍ « وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تتنزه عظمته عنه . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلًا ونهاراً ، وبراءتهم من البُنُوَّة المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

« وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى ملكاً وتدبيراً « وَمَنْ عِندَهُۥ » وهم الملائكة « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعْيَون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)

« يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة ـ فإن ما سلف من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ)

« أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟

قال الزمخشرىّ رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟ كيف ، وهم أبعد شىء عن هذه الدعوى؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض[1] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث . ويقولون : من يحيي العظام وهى رميم[2]؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كشأنى القديم . فكيف يدّعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .

قلت: الأمر كما ذكرت. ولكنهم بادعائهم لها الإلٰهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار. لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإنشار من جملة المقدورات . انتهى.

قال فى (الانتصاف) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ فى الإنكار .

ثم قال الزمخشرىّ : وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلٰهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . انتهى.

لطيفة:

سر قوله تعالى (مِنَ ٱلْأَرْضِ) هو التحقير ، أى تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية . وجوز إرادة التخصيص . أى الآلهة التى من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضىّ مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

«لَوْ كَانَ فِيهِمَآ » أى يتصرف فى السموات والأرض «ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ» أى غيره «لَفَسَدَتَا» أى لبطلتا بما فيهما جميعاً، واختل نظامهما المشاهد، كما قال تعالى فى سورة (المؤمنون)[1] (وَمَا كَانَ مَعَهُ و مِنْ إِلَٰهٍ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قال أبو السعود : وحيث انتفى التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً. بيان الملازمة ؛ أن الإلٰهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجادا وإعداماً وإحياءً وإماتة . فبقاؤهما على ماهما عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقى بمعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تمدد الإله ، فإن توافق الكل فى المراد ، تطاردت عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى (المقاصد) أنه لو وجد إلٰهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أوْ لَا . وكلاهما محال. أما الأول فلأنه لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال، لاستلزامه اجتماع الضدين. أوْ لا يقع مراد واحد منهما، وهو محال لاستلزامه عجز الإلٰهين الموصوفين بكمال القدرة على ماهو المفروض ، ولاستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلوّ المحل عنهما ، كحركة جسم وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع . وإليه الإشارة بقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] .

التكوّن ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخران فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العادىّ . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذى باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذى به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانىّ ، والمشار إليه فى الآية إقناعىّ . ولا يفيد العلم اليقينىّ فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب، وممن فصل ذلك التفتازانىّ فى (شرح العقائد النسفية) قادحا لما أشار إليه نفسه فى (شرح المقاصد) من كون الآية برهانًا، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام، أى بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعددُ التمانعَ بالفعل بل بالإمكان. والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادها . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل فى كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلًا . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فإما بمجموع القدرتين ، فيلزم عجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالعادة القاضية التى لم يوجد أخرمها قط فى ملكين مقتدرين فى مدينة واحدة ، أن يطلب كلٌّ الانفرادَ بالملك والعلوّ على الآخر وقهره ، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله (وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) ؟ وهذا إذا تؤمل لا تكاد النفس تخطر نقيضه بالبال، فضلا عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر.

فعلى هذا التقدير ، فاللازمة علم قطعىّ . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى. وقد شنع عليه فى مقالته المتقدمة غير واحد . وبالغ معاصره عبد اللطيف الكرمانىّ فى الانتقاد .

قال العلامة المرجانىّ : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفىّ فى كتابه (التبصرة) وتابعه صاحب (الكشف) حيث شنع على أبى هاشم الجبائىّ تشنيعاً بليغاً . حتى نسبه إلى الكفر بقدحه فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لا تقف عند حد . ولا تزال تتباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولا تضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه اللازمة العلامة مفتى مصر فى رساله (التوحيد) إيضاحاً ما عليه من مزيد، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة فى الصفة، أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بيّنا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها، بتعين ما يثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتىّ ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعلُ كلٍّ صادراً على حكم يخالف

الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات . فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته. ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى. فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وإراداتهم ، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات . لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشىء الواحد وجودات متعددة وهو محال فـ(لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) لكن الفساد ممتنع بالبداهة. فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لاشريك له فى وجوده ولا فى أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالىّ فى كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) فى بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لاأبين منها فى برهان التوحيد، وأنه لامزيد على بيان القرآن. قال الكلنبوىّ: الفساد المذكور فى هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكونهما فى الأصل كما قالوا. ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهى بعبارتها تنفى آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدلالتها تنفى تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من وجود شرك له فيهما. والفاء لترتب ما بعدها على ماقبلها من ثبوت الوحدانية بالدليل المتقدم . أى فسبحوه سبحانه اللائق به ، ونزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لايقدر على شىء البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ)

«لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ» أى هو الحاكم الذى لامعقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْئَلُونَ » الضمير للعباد . أى يسئلون عما يفعلون كقوله[1] (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قال الزمخشرىّ : إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لايسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيباً وإجلالًا ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم، أولى بأن لايسئل عن أفعاله ، مع ماعلم واستقرفى العقول من أن مايفعله كله مفعول بحكمة، ولايجوز عليه خطأ، ثم قال (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون . فماأخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ فى كل شىء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى[2] (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) .

تنبيه

قال الإمام الغزالىّ فى (المضنون به على غير أهله) : وأما معنى قول الله تعالى (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) وقوله تعالى[3] : (لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار، كما يسأل التلميذ أستاذه. والله تعالى لايتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام. وهو المعنىّ بقوله (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) إذ لايقال (لِمَ) قولَ إلزام . فأما أن لايستخبر ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله (لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٨٨] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٢٥] .

« أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً » كرره استعظاماً لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، مع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى دليلكم على ما تفترون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

قال أبو السعود : وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهكم بهم . وقوله تعالى « هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقلىّ ، ذكر أمتى أى عظمهم ، وذكر الأمم السالفة قد أمّته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم المحاجّة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ » أى عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبىّ ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ » وقرئ (يُوحَى) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . كما قال[1] (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال[2] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اُعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) فكل نبيّ بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له . والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . ثم بين تعالى بطلان ما يفتريه بعض المشركين من أن الملائكة بناته ، تعالى علوّاً كبيراً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)

[٢٧] (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

«وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» أى مقربون «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» أى يتبعون قوله : فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين « وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» فلا يعصونه فى أمر . إشارة إلى مراعاتهم فى أدب العبودية فى الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» أى مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علما[1] (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ » أى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال المهايمىّ : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدرون على أدنى وجوه معارضته . لأنهم لا يشفعون

(١) [٢ البقرة / ٢٥٥] .

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله[١] (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) كقوله[٢] (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) وقوله[٣] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ)

« وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ » الضمير فى (منهم) للملائكة . لتقدم ذكرهم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ فى الرد والتهديد .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال[٤] (وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) قصد بذلك تفظيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفى قوله (كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ) إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٥] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٢٣] . (٤) [٦ / الأنعام / ٨٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع فى آياته الكونية ، الدالة على وحدته فى ألوهيته، التى عمى عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقًا » أى لا تمطر ولا تنبت (فَفَتَقْنَٰهُمَا) أى بالمطر والنبات. فالفتق والرتق استعارة. ونظيره قوله تعالى(١) (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ) و (الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات لأنه يصدع الأرض أى يشقها . وقوله تعالى(٢) (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ) أى كيف انفردنا فى إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته(٣) (أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا) أى من المزن بعد أن لم يكن(٤) (ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقاً مرئياً مشهوداً ، كما تراه فى الأرض بعد الرىّ . أو شقاً بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى(٥) (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وكقوله(٦) (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ (الفتق) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ (الرتق) .

قال الرازىّ : وتحقيقه أن العدم نفى محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة. بل

(١) [٨٦ / الطارق / ١١و١٢] . (٢) [٨٠ / عبس / ٢٤] .
(٣) [٨٠ / عبس / ٢٥] . (٤) [٨٠ / عبس / ٢٦] .
(٥) [٦ / الأنعام / ١٤] . (٦) [٢١ / الأنبياء / ٥٦] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن. جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى (كَانَتَا رَتْقًا) أى شيئاً واحداً . ومعنى (فَفَتَقْنَاهُمَا) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه . أى أنها إحدى هذه السيارات . وهى مثلها فى المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى . وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهى مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اهـ كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول فى تفسير الآية لقوله تعالى بعده (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية فى قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ) بصرية . وعلى قول أبى مسلم وما بعده ، علمية . على حد قوله تعالى لنبيّه صلوات الله عليه[1] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما تيقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحجة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمه .

ومعنى قوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) صيّرنا كل شىء حىّ بسبب من الماء ، لا يحيا دونه. فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنَّور والثمر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف فى آيات شتى . كقوله تعالى[2] (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) وخص بعضهم الشىء بالحيوان ، لآية[3]

(١) [١٠٥ / الفيل / ١] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٩] . (٣) [٢٤ / النور / ٤٥]

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم فى العبرة ، وأبلغ فى الخطاب ، وألطف فى المعنى .

وقوله تعالى (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور مايوجبه حتما من الآيات الظاهرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ » أى جبالا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِهِمْ » أى لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب مما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير فى (فيها) للأرض. وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثانى اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى (سُبُلًا) بدل من (فِجَاجًا) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة . ومعنى (يهتدون) أى إلى مصالحهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٢] (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ)

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا » أى على الأرض كالقبة عليها «مَّحْفُوظًا» أى عالياً محروساً أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى[1] (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً) « وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمروسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ماأودعها مما لايعرف كنهه إلا هو ، عَزَّت قدرته ولطف علمه ؟ ؟

وقرئ (عن آيتها) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَٱلنَّهَارَ » ليتحركوا لمعاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ » أى ضياء وحسباناً « كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالسابح فى الماء . و (الفلك) فى اللغة كل شىء دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية[2] (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اهـ . وقوله تعالى :

---

(١) [٧٨ / النبأ / ١٢] . (٢) [٨١ / التكوير / ١٥و١٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ)

«وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ» نزلت حين قالوا (نتربص به ريب المنون) فكانوا يقدّرون أنه سيموت، فيشمتون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد فى الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله[1] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحىٍّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليًّا ، أو نبيًّا أو رسولًا . انتهى .

وتقدم بسط ذلك فى سورة الكهف فتذكر . وفى معنى الآية قول عروة الصحابىّ[2] رضى الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ ... كَلاكِلَهُ أناخَ بآخرينَا
فقل للشَّامتينَ بنا : أفيقُوا ... سيلقى الشامِتُونَ كما لقِينَا

وقول الشافعىّ :

تَمَنَّى أُنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فقل للَّذى يَبْغى خلافَ الَّذى مضى : ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا ، وَكَأَنْ قَدِ

(١) [٢٥ / الحجر / ٩] . (٢) قال صاحب (رغبة الآمل ، من كتاب الكامل) : قائلهما هو فَرْوَةُ بن مُسَيْك الْمُرَادِىّ انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ » أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، ومايجب فيه الشكر من النعم « فِتْنَةً » أى اختباراً. وهو مصدر مؤكد (لنبلوكم) من غير لفظه « وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » أى فنجازيكم على حسب مايوجد منكم من الصبر أو الشكر. قال الزمخشرىّ : وإنما سمى ذلك ابتلاء ، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه فى صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضى : وفى الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريرا لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٦] (وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ)

« وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ » عنى بهذه الآية مستهزئو قريش، كأبى جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيظ لسبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى[1] (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وإضافة ذكر (للرحمن) من إضافة المصدر لمفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ، أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن. هم كافرون، أى فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

« خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى[1] (وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك (خلق زيد من الكرم) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ماطبع هو منه من الأركان ، إيذاناً بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه . فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بعادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن (عجلته) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد « سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى » أى نقماتى فى الدنيا كوقعة بدر . وفى الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الموعود من العذاب الأخروىّ ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لا لتعيين وقته « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشرىّ : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه ، وأن عجلتهم لجهلهم بمغبته ، بقوله تعالى :

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٠] (بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

« لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ » أى لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » أى بدفع أحد عنهم . وجواب (لو) محذوف أى: لما استعجلوا . وقيل (لو) للتمنى . لا جواب لها « بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » أى فجأة فتحيّرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردّها « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا » أى بسبب من الأسباب « وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤١] (وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ » أى نزل « بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى عذابه أو جزاؤه ،على وضع السبب موضع المسبب، إيذاناً بكمال الملابسة بينهما، أو عين استهزائهم ،إن أريد بذلك العذاب الأخروىّ، بناء على تجسم الأعمال.

فإن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز فى النشأة الأخرى بصور جوهرية، مناسبة لها فى الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ، بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ)

« قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم » أى يحفظكم « بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم (الليل) لما أن الدواهى فيه أكثر وقوعا وأشد وقعاً . وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته. كغضب الحليم . وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايمىّ : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومَن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولايغترون فى ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعهم عن ذلك « بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ » أى لايخطرونه ببالهم، فضلا أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسْألوا عن الكالئ « أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجلى ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دُونِنا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هى به من صفتها. ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التى يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهى لا تستطيع نصر أنفسها ولا هى بمصحوبة منا بالنصر والتأييد . أفاده

ابن جرير[١] . ف (فيصحبون) بمعنى يجارون يقال (صحبك الله) أى أجارك وسلمك، كما فى (الأساس) . قال[٢] ابن جرير : أى لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكىٌّ عنها (أنا لك جار من فلان وصاحب) بمعنى أجيرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ، أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)

« بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ » إضراب عما توهموا، ببيان أن الداعى إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ونعّموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لا تأتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لا يغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ » أى ننقص أرض الكفر فنخربها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلائهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنابهم نحو الذى قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف. أفاده[٣] ابن جرير. وهذا كقوله تعالى[٤] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله تعالى « أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ »

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب، الغالبون لنا، وقدرأوا قهرنا مَن أحللنا بساحته بأسَنا فى أطراف الأرض ؟

وفى التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ، وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ)

« قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ » أى تنزيل الله الذى يوحيه إلىّ من عنده وأخوفكم به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون، لأن ذلك ليس إلىّ، على مافيه من الحكمة فى هذه البعثة التى بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم وعنادهم، بأن هذا الإنذار لا يجديهم، بقوله تعالى «وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ» أى فهم لا يصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر مافى وحى الله من المواعظ والذكرى، فيتذكرون بها ويعتبرون فينزجرون إذا تلى عليهم، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه، فعل الأصم الذى لا يسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله (إِذَا مَا يُنذَرُونَ) مع أنهم لا يسمعون نذارة ولا بشارة، إما لأن المقام مقام إنذار، أو لأن من لا يسمع إذا خوف، كيف يسمع فى غيره ، فهو أبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ » أى ولئن أصابهم أدنى شىء من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم فى التصامّ والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

فى صدر الآية مبالغات. ذكر المس. ومافى النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء . والبناء الدال على المرة . والتنكير . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ)

« وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه . أى نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوىّ والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للمبالغة . كأنها فى نفسها قسط. أو على حذف المضاف أى ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام فى (ليوم القيامة) للتعليل أو بمعنى (فى) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا » أى من حقوقها . أى شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِن كَانَ » العمل أو الظلم « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا »أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل . للوزن . وأنث لإضافته إلى الحبة «وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ» أى وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سيء ، منا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع فى قصص الأنبياء ، تسلية له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ) إلى قوله (ٱلْمُسْرِفِينَ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم. وتصديره بالتوكيد القسمىّ لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه. والمراد بـ(الفرقان) التوراة وكذا بـ(الضياء) و(الذكر) . أى وبالله لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل. وضياءً يستضاء به فى ظلمات الجهل وذكراً يتعظ به الناس . وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . « ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ » أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم. وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون فى الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التى تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم، قد فرّطوا فى الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] (وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ، أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ)

« وَهَـٰذَا » أى القرآنُ الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ » أى مع ظهور كون إنزاله كإيتاء

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧ ـ ٩] .

التوراة . وفى الاستفهام الإنكارىّ توبيخ لهم بأنه لا ينبغى لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم (لَهُ) للفاصلة أو للحصر . لأنهم معترفون بغيره مما فى أيدى أهل الكتاب.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتيناه . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناه إياها ، فأهّلناه لخلتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ » أى ما هذه الصور الحقيرة التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ)

[٥٤] (قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هَوًى متّبَع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ (فى) الظرفية دلالة على تمكنهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من (ضالين) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)

« قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ » قال الزمخشرىّ رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتماثيل. وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلالته صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالتهم فى اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم[1] (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَّبُّكُمْ ...) الآية . أو إضراب عن كونه لاعبا بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) أى البرهنين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاطل منها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ)

« وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم » لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧١] .

« فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لاتتحلم إلى هذا الحدّ . فهو عجّزهم فى الدفع عن أنفسهم . فتوقعُ عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » أى فيسألونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه فى ذلك . فضلًا عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

« قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى لجرأته على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالتعظيم . أو لإفراطه فى التجذيذ والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ)

[٦١] (قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

« قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضرا ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شىء من ذلك ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ)

«قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله « فَسْـَٔلُوهُمْ » أى يجيبوكم « إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ » أى والأظهر عجزهم الكلىّ المانع من القول بإلهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضىّ يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة ، وتبكيتهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره ، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارته : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى[1] (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه، قصدا إلى تحقيق ذلك . وجلىٌّ أن مراده عليه السلام ، على كلٍّ ، إنما هو توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا . قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأنَّ عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَرَجَعُوا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)

« فَرَجَعُوا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى فراجعوا عقولهم . ومراجعة العقل مجاز عن التفكر والتدبر، والمراد بالنفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر «فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ» أى بهذا السؤال أو بعبادة من لاينطق ولايضر ولا ينفع، لا مَن كسرها ، فَلِمَ تنسبوه إلى الظلم بقولكم (إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ)

« ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياءً من نقصهم ، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم ، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ» أى ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ)

[٦٧] (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، مَالَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ » أى قبح صنيعكم فى عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر فى الكشاف فى قوله تعالى (ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) أربعة أوجه. وحاصلها كما فى العناية ـ أن التنكيس قلب الشىء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة فى تظليم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة فى تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها فى معرض الألوهية . فقوله (لَقَدْ عَلِمْتَ) معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله (أَفَتَعْبُدُونَ) الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق فى قولهم (لَقَدْ عَلِمْتَ) لأنه نفى لقدرتها واعتراف بأنها لاتصلح للألوهية، وسمى (نكسا) وإن كان حقًّا، لأنه ماأفادهم مع الإصرار. ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة فى إطراقهم خجلاً وقولهم (لَقَدْ عَلِمْتَ) لحيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم. أو النكس مبالغةفى الحيرة وانقطاع الحجة . و (أف) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما فى كتب اللغة. قال الزمخشرىّ: أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم. ولما عجزوا عن المحاجّة أخذوا فى المضارّة ، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من المحقّ . ولم يبق له مفزع إلا مناصبته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ)

« قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به « وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ » أى بالانتقام لها « إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة، فلا يليق به غيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ)

« قُلْنَا » أى تعجيزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له فى إنجاء من آمن به « يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ » أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه ، بل كونى غير ضارة . وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما فى قوله[1] (كُونُوا۟ قِرَدَةً) ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بمأمور مطيع ، وتخييلها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم : المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً، كقوله[2] (أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى فيكونه . فإن النار جماد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازىّ : لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها ـ أن الله تعالى أزال عنها مافيها من الحرّ والاحتراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شىء قدير.

وثانيها ـ أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه . كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار .

(١) [٢ / البقرة / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

وثالثها ـ أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه .

قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله (يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا) أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ)

[٧١] (وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ)

« وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشرىّ : غالبوه بالجدال فغلّبه الله ولقنه بالمسكّت . وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقوّاه « وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التى هى طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنىّ والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم. ثم بين بركته تعالى على إبراهيم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ » أى بدعوته[1] (رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ) « وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » أى زيادةً وفضـلًا من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ » بالاستقامة والتمكين فى الهداية .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ)

« وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله[1] (وَمِن ذُرِّيَّتِى) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذننا . قال الزمخشرىّ : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يخلّ بها ويتثاقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدىّ أميل « وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ)

[٧٥] (وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ، إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

« وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغى علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله «وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ» أى من عذابها « ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ»

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

يعنى اللواطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطىّ منكساً من مكان عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا » أى فى أهلها « إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ » أى دعا ربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله[1] (أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) [2](رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستتبعاً للانتصار والانتقام من قومه « الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيّهم .

---

(١) [٥٤ / القمر / ١٠] . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ)

« وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ » أى رعته ليلًا « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَٰعِلِينَ)

« فَفَهَّمْنَٰهَا » أى الفتوى أو الحكومة ، المفهومين من السياق « سُلَيْمَٰنَ » أى فكان القضاء فيها قضاءه ، لا قضاء أبيه . روى[1] عن ابن عباس أن غنما أفسدت زرعاً بالليل ، فقضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لا مرفوعاً . والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » أى وكل واحد منهما آتيناه حكمة وعلما كثيراً ، لا سليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيًّا .

---

(١) انظر ابن كثير . الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

تنبيهات :

الأول ـ استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله فى هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بيّن فى الأصول. وردّ بأن مفهوم قوله (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام، يدل على أنه المصيب للحق عند الله. ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى. والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه، دل على أن كلامنهما مصيب. وتخصيصه بالفهم لايدل على خطأ داوُد عليه السلام، لجواز كون كلٍّ مصيباً. ولكن هذا أرفق وذاك أوفق، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدل بهذه الآية كلٌّ . فكما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا فى (العناية) .

وجاء فى (فتح البيان) مامثاله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيبا فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين[1] وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبىّ ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لايختلف باختلاف المجتهدين. وإلا لَزم توقف حكمه عزوجل على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف فيها اجتهاد المجتهدين، بالحلّ والحرمة، حلالا وحراما فى حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضا يلزم أن حكم الله سبحانه لايزال يتجدد عند وجود كل مجتهد، له اجتهاد فى تلك

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ـ ٢١ ـ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانقطاع المجتهدين . واللازم باطل فالملزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق فى كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب .

قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثانى ـ دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان بوحى لما أوثر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى[1] (عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) فعاتبه على ماوقع منه . ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . ومنه ماصح عنه صلوات الله عليه من قوله[2] (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدْى) ومثل ذلك لايكون فيما عمله بالوحى ، ونظائر ذلك كثيرة فى الكتاب والسنة . وأيضا ، فالاستنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب .

قال الرازىّ : إذا غلب على ظن نبىٍّ أن الحكم فى الأصل معلل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معا ، وهو محال ، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلوّ عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو

(١) [٩ / التوبة / ٤٣] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٨١ ـ باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ ، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ١٤١ (طبعتنا) .

باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس ـ وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس . وهى قائمة أيضا فى حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بها على جواز الاجتهاد فى الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثنى عليهما . وقد تقدم أولًا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمين أرباب المواشى ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفش لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبى حاتم عن شريح والزهرىّ وقتادة . ومن عمم الضمان فسره بالرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان فى هذه الواقعة . إذ لم يرد فى شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى[1] ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلا لى . فقال شريح : نهاراً أم ليلًا ؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه . وإن كان ليلًا فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه[2] الإمام أحمد وأبو داود[3] وابن ماجة[4] من حديث الليث بن سعد عن الزهرىّ عن حرام بن محيّصة ، أن ناقة البراء بن عازب

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٩٠ ـ باب المواشى تفسد زرع قوم ، حديث رقم ٣٥٧٠ . (٤) أخرجه ابن ماجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٣ ـ باب الحكم فيما أفسدت المواشى ، حديث رقم ٢٣٣٢ (طبعتنا) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلّل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضي أتاه الحسن ، فبكى . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصريّ : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ . . .) الآية . فأثنى الله على سليمان ، ولم يذمّ داود .

ثم قال (يعني الحسن) : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثا : لا يشتروا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا[1] (يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) وقال[2] (فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ) وقال[3] (وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا) .

ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح[4] البخاريّ عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فهذا الحديث يردّ نصًّا ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار .

وفي السنن[5] : (القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار . رجل علم الحق

---

(١) [٣٨ / ص / ٢٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ٢ ـ باب في القاضي يخطئ ، حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بُرَيْدة .

وأخرجه ابن ماجه في : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ، حديث رقم ٢٣١٥ (طبعتنا) .

وقضى به فهو فى الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار) .

ثم بيّن سبحانه ماخص كلًّا من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ » أى سخرنا الجبال والطير يقدسن الله معه ، بصوت يتمثل له أو يُخْلَقُ فيها . قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه (الزبور) وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه . وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مرّ[1] النبىّ ﷺ على أبى موسى الأشعرىّ وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيّب جداً ، فوقف واستمع لقراءته وقال : لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود . قال : يا رسول الله ! لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيرا .

وقال أبو عثمان الهندىّ : ماسمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبى موسى رضى الله عنه . انتهى .

وتقديم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل فى الإعجاز . لأنها جماد . والتذييل بقوله (وَكُنَّا فَاعِلِينَ) إشارة إلى أنه ليس ببدع فى جانب القدرة الإلهية ، وإن كان عند المخاطبين عجيباً . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة (ص)[2] (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٣١ ـ باب حسن الصوت بالقراءة ، حديث رقم ٢٠٩٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٣٦ (طبعتنا)

(٢) [٣٨ / ص / ١٧ ـ ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ)

« وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع الملبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفائح ، فحلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها فى بعض كما قال تعالى[1] (وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ) أى لا توسع الحلقة فتقلق المسمار . ولا تغلظ المسمار فتقدّ الحلقة . ولهذا قال « لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ » أى لنعم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم فى المعامع حياتكم . وفى إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة فى التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيماء إلى التقصير فى الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ)

« وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا »، وهى بيت المقدس «وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ» أى ماتقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى[2] (فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ) .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيّه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال[3] (غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠و١١] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٦] . (٣) [٣٤ / سبأ / ١٢].

أن تكون رخاء فى نفسها ، وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال فى (الانتصاف) : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافى منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت فى خفتها وفى سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت فى عظم خلقها كالثعبان ، ففى كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ)

«وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ » أى فى البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى[1] (يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ) « وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ » أى مؤيدين ومعينين .

تنبيه :

الشياطين المذكورون ، إما مردة الإنس وأشداؤهم ، وإما مردة الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائىّ : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لايقدرون على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثّف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد فى عظمهم ، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

---

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

[٨٤] (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ)

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ » .

أى اذكر أيوب وماأصابه من البلاء ودعاءه ربه فى كشف مانزل به، واستجابته تعالى دعاءَه وما امتن به عليه فى رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر، وأن عاقبة العسر اليسر. وأن لك الأسوة بمثل هذا النبىّ الصبور، فما ينزل أحياناً بك من ضرّ . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاء . كما فى الحديث[1] (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل) .

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لايدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء فى هذا العالم لايترتبان على صالح الأعمال وسيئها. لأن الدنيا ليست دار جزاء. وإن عاقبة الصدق فى الصبر، هى توفية الأجر ومضاعفة البر. وقدروى أن أيوب عليه السلام، لما امتحن بما فقدمعه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعانى من قروح جسده آلاما، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتى أضعاف مافقده . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلًا أبصر أولاد أولاده إلى الجيل الرابع . ولذا قال تعالى (وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ) أى تذكرة لغيره

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٤ ـ كتاب الزهد، ٥٧ ـ باب ماجاء فى الصبر على البلاء، عن سعد.

من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابوا كما أثيب فى الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر فى المجاهدة فى سبيل الحق . وقد روى المفسرون هٰهنا فى بلاء أيوب روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تُعارُ من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد فى التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته ، وبنزول مرض شديد به ، عدم معه الراحة ولذة الحياة ، غرائب . إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها . لما داخلها من المزيج ، وتوسع بها فى الدخيل ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش . ولو علم الله خيراً فى أكثر مما أجمله فى تنزيله الحكيم ، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصّل .

تنبيه .

قال بعضهم : أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام . وأنه كان غنيًّا من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً فى قومه . وأن أملاكه ومنزله فى أرض خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة فى الجنوب الشرقى من البحر الميت. ومن جبل سعير بين بلاد أدوم وصحراء العربية . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ)

[٨٦] (وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ، إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

« وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ » أى على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب ، وعلى احتمال الأذى فى نصرة دينه تعالى ، ففيهم أعظم أسوة «وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ » أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة « إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى الكاملين فى الصلاح .

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره فى سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبىّ .

وقال آخرون : إنما كان رجلًا صالحًا ، وكان ملكًا عادلًا وحكمًا مقسطًا ، وتوقف ابن جرير فى ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

[٨٨] (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى اذكر ذا النون يعنى صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليتثبت فى نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على مايقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة ههنا وفى سورة (الصافات) وفى سورة (ن) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى ـ من أرض الموصل ، كرسىّ سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . فخشى أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل فى سفينة سائرة إلى ترشيش ليقيم فيها . فأرسل الله ريحًا شديدة على البحر ، أشرفت السفينة معه على الغرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يفد ، فوقع فى أنفسهم أن فى السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فاقترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فقذفوه فى البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهيأ الله حوتاً ليونس فابتلعه ، فمكث فى جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى[1] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

تنبيهات :

الأول ـ يونس عليه السلام يسمى فى التوراة (يونان) وهو عبرانىّ . ويقال إنه من جَت حافَر وهى قرية فى سبط زبولون ، فى شمال الأرض المقدسة . وإنه نُبِّئَ قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثانى ـ أكثر المفسرين (كما حكاه الرازىّ) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإباقه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولا ، أن يترك ولا يقاصّ . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولًا الأمر الإلهىّ وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبىّ كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة فى (مغاضباً) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما فى غلبة الآخر . فيقتضى بذل المقدور والتناهى . فاستعمل فى لازمه للمبالغة ، دون قصد (مفاعلة) وقد استدل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب فى التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجرى مجرى بيان الوحى ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فى حال بيان المشروع . وهو قول الكرامية فى المرجئة (كما فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد)

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] .

وقول الباقلانىّ من الأشعرية : (على ماحكاه ابن حزم فى الملل) . وأما الجمهور المانعون من ذلك ، فلهم فى هذه الآية وأشباهها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم فى هـذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله (بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجاريّة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبىّ معصية بعمد ، لاصغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذى ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . ونقول : إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضا قصد الشىء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لايقرهم على شىء من هذين الوجهين أصلا ، بل ينبههم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه فى الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا فى هـذا . فإننا غـير مؤاخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدنا به وجه الله عزوجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال (فى الكلام على يونس عليه السلام) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم يغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلا على الله الكذب ، وزائداً فى القرآن ماليس فيـه . هذا لايحـل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبىٌّ من الأنبياء ؟ فعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء الله عز وجل . وأما قوله تعالى (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذى لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبىّ مفضل على الناس فى العلم ؟ ومن المحال المتيقن أن يكون نبىّ يظن أن الله تعالى الذى أرسله بدينه لايقدر عليه . وهو يرى أن آدميًّا مثله يقدر عليه . ولا شك فى أن من نسب هذا للنبىّ ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذى يقول فيه

رسول الله ﷺ[١] (لا تفضلونى على يونس بن متى) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك، وصح أن معنى قوله (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى[٢] (وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه فى مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن فى فعله ذلك : وإنما نهى الله عزوجل ، محمدا ﷺ عن أن يكون كصاحب[٣] الحوت، فنعم، نهاه الله عزوجل عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التى تداركه بها، للبث معاقباً فى بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشىء فى غير موضعه . فلما وضع النبىّ صلى الله عليه وسلم المغاضبة فى غير موضعها ، اعترف فى ذلك بالظلم . لا على أنه قصده وهو يدرى أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذى يفتح باب الإشكالات هو التعمق فى الألفاظ . والتنطع فى شرحها وتوليد معانى ولوازم لها، والتوسع فى وجوهها توسعاً يميت رونق التركيب ونصاعة بلاغته. ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آيه تأخذ بمجامع القلوب رقة وانسجاما . وبلاغة وانتظاما . فلا ترى فى كله إلا المختارات لطفا ، ولا فى جمله إلا الفخيمات تركيبا ، ولا فى إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا فى كناياته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته فى الملام والوعيد من إفراغ القول فى أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب، وقوة العتب وذلك لعزة الجناب الإلهىّ والمقام الربانىّ . فالعربىّ البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلى عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام فى هذه الآية ، يدهش لما ترى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٣٥ ـ ـ باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠، عن ابن عباس، ونصه : ماينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس بن متى . (٢) [٨٩ / الفجر / ١٦] . (٣) [٦٨ / القلم / ٤٨] .

إليه من قوة العتب واللام، وأنه بإباقه غاضب مولاه ، غضباً لا يماثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن لن يُنسى فلا يؤاخذ . ويفلت فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع فى شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقته الرحمة . هذا مجمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

الثالث : عدَّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحَالًا . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذى له فى خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر ، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذى ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين ، من النوع المعروف عند بعضهم (بالزفا) وهو من كبار الحيتان يكون فى بحر الروم ، واسع الحلقوم ، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى فى الإمكان أن يخرج منه وهو حىّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاؤه ثلاثة أيام فى جوف هذا الحوت ، ولبث مالكا رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع فى قوله (فِى ٱلظُّلُمَٰتِ) إما على حقيقته ، وهى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . أو هو مجاز ، يجعل الظلمة لشدتها وتكاثفها فى بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزمخشرىّ ونظره بآية[1] (ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ) .

الخامس : قوله تعالى (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ) أى دعاؤه (وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ) يعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل (فنجيناه) كما قال فى قصة أيوب عليه السلام[2] (فَكَشَفْنَا) لأنه دعا بالخلاص من الضر . فالكشف المذكور يترتب على استجابته .

(١) [٢ / البقرة / ١٧] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨٤] .

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب فى استجابته . وردّ بأن (الفاء) فى قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيرىّ . والتفنن طريقة مسلوكة فى علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب فى سر الإتيان بالفاء ثمة ، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف فى السؤال . فلما أجمل فى الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنبا . كما أشار إليه بقوله (مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعده تفسيرا له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله (وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ) أى إذا كانوا فى غموم ، وأخلصوا فى أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى فى الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذىّ (دعوة[1] ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط ، إلا استجاب له) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ)

« وَزَكَرِيَّآ » أى واذكر خبره « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبيّا ، ولا يتركه فرداً وحيدا بلا وارث ، وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة مريم وفى سورة آل عمران أيضا . وقوله « وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ »

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨١ ـ باب حدثنا محمد بن يحيى .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزالىّ فى (شرح الأسماء الحسنى) : الوارث هو الذى ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقى بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شىء ومصيره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ)

« فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ » أى دعاءه « وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ » أى أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له. وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ » تعليل لما فصّل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أى كانوا يبادرون فى كل باب من الخير . وإيثارُ (فى) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير . لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشىء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أى ذوى رغب ورهب ، أو راغبين فى الثواب راجين للإجابة « وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ » أى مخبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ)

« وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى اذكر نبأ التى أحصنته إحصاناً كليا ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت[1] (وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ) والتعبير عنها بالموصول ، لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعموه فى حقها ، بادئ بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا » أى نفخنا

(١) [٣ / آل عمران / ٤٧] و [١٩ / مريم / ٢٠] .

الروح فى عيسى فيها . أى أحييناه فى جوفها . فنزّل نفخ الروح فى عيسى، لكونه فى جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أى أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بعض روحنا ، أى بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت فى الهواء الذى نفخه فى رحمها « وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ » أى نبأها « ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ » أى فى كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم فى غير أوانه . وتثمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها فى المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : هلا قيل (ءَايَتَيْنِ) كما قال[1] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ) ؟ قلت : لأن حالها بمجموعهما آية واحدة. وهى ولادتها إياه من غير فحل. انتهى. وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ)

« إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ » أى علة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لاشريك له « أُمَّتُكُمْ » أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى غير مختلفة . بل هى ملة واحدة . أى أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد. كما قال تعالى[2] (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ) « وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ » أى لا إله لكم غيرى « فَٱعْبُدُونِ » أى ولا تشركوا بى شيئاً .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩] .

تنبيه :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما فى قوله[١] (إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ » أى على دين يجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير من المفسرين فى هذه الآية ، وفى آية[٢] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ) وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة ، كما هى فى قوله تعالى[٣] (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ) أى جماعة . وكما فى قوله[٤] (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هى بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السنين كما فى قوله تعالى[٥] (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) وفى قوله (وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به ، كما فى قوله[٧] (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله[٨] (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وهذا المعنى الأخير لايخرج عن معنى الجماعة ، على ماذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله فى تفسير آية[٩] (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] .
(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥١و٥٢] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨١] .
(٤) [٣ / آل عمران / ١٠٤] .
(٥) [١١ / هود / ٨] .
(٦) [١٢ / يوسف / ٤٥] .
(٧) [١٦ / النحل / ١٢٠] .
(٨) [٣ / آل عمران / ١١٠] .
(٩) [٢ / البقرة / ٢١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ)

« وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ » أى تفرق الناس فى دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات . كأنه ينعى عليهم ماأفسدوه، إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشىء ويقتسمونه. فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزابا شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ)

« فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ » أى فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا فى دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه فى أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله ، مصدق وعده ووعيده، متبرىء من الأندادوالآلهة، فلا كفران لسعيه، بل يشكر الله عمله هذا، ويثيبه ثواب أهل طاعته. وقوله تعالى(وَإِنَّا لَهُۥ) أى لسعيه المشكور (كَٰتِبُونَ) أى مثبتوه فى صحيفة أعماله، ولا نضيعه .

تنبيه :

الكفران مصدر من (كفر فلان النعمة كُفرا وكفراناً) وأوثر (لا كفران) على (لانكفر) للمبالغة . لأن نفى الجنس مستلزم له وأبلغ فى التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل

بالسعي لإظهار الاعتداد به . والآية كقوله تعالى[١] (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحوق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله[٢] تعالى (أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) وقوله[٣] (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) وزيادة (لا) هنا لتأكيد معنى النفى من (حرام) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية فى الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوّعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهم الكبرى ، وهى حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها ، و (لا) فيها على بابها . وهى مع (حرام) من قبيل نفى النفى . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القريه المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ماتقدم أنه لا كفران لسعى أحدٍ . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآى أولى . وأما ما ذكر سواها ، فلا يدل عليه السياق ولا النظير . وفيه مايخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [١٧/ الإسراء/ ١٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٣١] . (٣) [٣٦/ يس / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ)

« حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة مِنْ أَجْنَاسٍ شتى « وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ » أى من كل نشز من الأرض يسرعون ، متجندين لقهر أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر « فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ، قائلين « يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ » أى لأنفسنا ، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد . ثم أشار إلى شأنهم فى الآخرة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ)

[٩٩] (لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

[١٠٠] (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ » أى ما يرمى به إليها « أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب. ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شىء أبغض إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أى ترديد نفس تنتفخ منه الضلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أى من الهول وشدة العذاب . ثم بيّن تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع الترهيب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

[١٠٢] (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ)

[١٠٣] (لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ » أى الخصلة الحسنى، وهى السعادة أو التوفيق « أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم فى غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أى صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعما يفزعهم « وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ » أى للحشر كما قال تعالى (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ) « وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ » أى تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ، وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [٢٧ / النمل / ٨٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ، وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ)

[١٠٥] (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ)

[١٠٦] (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ)

[١٠٧] (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)

« يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ » أى اذكره . أو ظرف لـ (لا يحزنهم) أو لـ (تتلقاهم) . والطىّ ضد النشر. وقوله « كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب. واللام فى (للكتب) لام التبيين . ولذلك قرئ (الكتاب) بالإفراد . أو بمعنى (من) وفيه قرب من الأول ، أو (الكتب) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها . فاللام بمعنى (على) وهو ما اختاره ابن جرير[1] .

تنبيه :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبىّ صلوات الله عليه ، كما رواه أبو داود والنسائىّ وغيرهما ، فأثر منكر لا يصح .

قال ابن كثير[2] : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبى داود . منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزىّ .

وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير[3] وقال : لا يعرف فى الصحابة أحد اسمه السجل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .
(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وكُتَّابُ النبيّ صلوات الله عليه ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .

وصدق رحمه الله فى ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .

وأما من ذكره فى أسماء الصحابة، فإنما اعتمد على هذا الحديث. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية[1] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطى السماء كناية عن انكدار نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى منجزين إياه. ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز المنبئ عنه ، وإيراثه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . و(الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام، ويقال: المراد به كل كتاب منزل . والذكر ـ قالوا ـ التوراة أو أم الكتاب. يعنى اللوح الذى كتب فيه كل شىء قبل الخلق، والله أعلم. وقوله تعالى «إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ» إشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة. أو إلى العبرة فى إيراث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) أى يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » أى وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطرىّ ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفى جعله نفس الرحمة مبالغة جلية . وجوز كون (رحمة) مفعولًا له . أى للرحمة، فهو نبىّ الرحمة.

---

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

تنبيه :

قال الرازيّ : إنه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا . أما فى الدين فلأنه بعث والناس فى جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب. فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريناً له. قال الله تعالى[1] (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ) إلى قوله تعالى (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) وأما فى الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة فى بعثته صلوات الله عليه ، فى (الشذرة) التى جمعتها فى سيرته الزكية ، فى بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار ، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبل ، وانتشار من الأهواء ، وتفرق من الملل ، مابين مشبه لله بخلقه ، وملحد فى اسمه ، ومشير إلى غيره ، كفر بواح ، وشرك صراح ، وفساد عام ، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق ، وشن للغارات ، ووأد للبنات وأكل للدماء والميتات ، وقطع للأرحام ، وإعلان بالسفاح ، وتحريف للكتب المنزلة ، واعتقاد لأضاليل المتكهنة ، وتأليه للأحبار والرهبان ، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وطامات طبقت أكناف الأرض ، استمرت الأمم على هذه الحال ، الأجيال الطوال ، حتى دعا داعى الفلاح ، وأذن الله تعالى بالإصلاح . فأحدث بعد ذلك أمراً ، وجعل بعد عسر يسراً . فإن الفوائب إذا تناهت انتهت ، وإذا توالت تولت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان ،

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق . قال تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ) وقال تعالى[1] (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)

[١٠٩] (فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ، وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ)

[١١٠] (إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

[١١١] (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

[١١٢] (قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

«قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ » أى مايوحى إلىّ، إلّا استئثاره تعالى بالوحدانية فى الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه فى جنبه. فهو قصر دعائىّ « فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ » أى منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِن تَوَلَّوْا۟ » أى عن التوحيد « فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » أى أعلمتكم وهديتكم على كلة سواء بيننا وبينكم ، نؤمن بها ونجنى ثمرات سعادتها فى الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم، وليس بمصروف عنكم. وإن كنت لاأدرى متى يكون ذلك، لأن الله تعالى لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه كما قال « وَإِنْ أَدْرِىٓ » أى وما أدرى «أَقَرِيبٌ

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ » أى من الفتح عليكم ، وإيراث أرضكم غيركم ، ولحوق الذل والصغار بعصيانكم « إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ » أى فسيجزيكم على ذلك « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ » أى وما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم ، وزيادة فى افتتانكم . أو ابتلاء لينظر كيف تعملون . و(الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب ، أو هو بمعناه الأصلى . فهو استعارة مصرحة . وقوله تعالى « وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ » أى تمتيع لكم إلى أجل مقدور . والتمتيع بمعنى الإبقاء والتأخير « قَٰلَ » وقرئ (قُل) « رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ » أى افصل بيننا وبينهم بالحق . وذلك بنصر من آمن بما أنزلت ، على من كفر به ، كقوله تعالى[1] (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ) « وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أى من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه . وقد أجاب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد فى الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

قال الرازىّ : قال القاضى : إنما ختم الله هذه السورة بقوله (قل رب احكم بالحق) لأنه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان لهم الغاية . وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه . فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم . فإذا أبوا إلا التمادى فى كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ، ليحكم بينك وبينهم بالحق . إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره . وإما بتأخير ذلك . فإن أمرهم ، وإن تأخر فما هو كائن قريب . وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه ، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول ، كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق .

تم الجزء الحادى عشر ويليه ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر ، وفيه تفسير سور : ٢٢ ـ سورة الحج ، و ٢٣ ـ سورة المؤمنون و ٢٤ ـ سورة النور و ٢٥ ـ سورة الفرقان

---

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٢١٩٧

٤٢١٦